الغرفة الزرقاء

للقصصي الفرنسي بروسبير ميريميه
بقلم الأستاذ محمد عبد الفتاح محمد

انطلق الشاب يذرع رصيف المحطة فى قلق واضطراب . كان يضع على عينيه نظارة زرقاء . وكان يخفى أنفه بمنديل برغم أنه لم يكن يشكو الزكام . وكان يحمل بيده اليسرى حقيبة سوداء صغيرة ، تحتوى — كما علمت بعد — على « روب دى شامبر » من الحرير الأزرق وبعض السراويل التركية .. وكان بين الحين والحين يذهب إلى مدخل المحطة فيلقى على الشارع نظرة يقوُ بعدها إلى مكانه . وأخيرا نظر فى ساعته فوجد أن أمامه ساعة كاملة على بدء تحرك القطار . وهكذا نرى بعض الناس ، حرصا على اللحاق بالقطار يذهبون إلى المحطة قبل الموعد بساعة أو يزيد ، على حين تراهم فى بيوتهم يحترمون مواعيد طعام الغداء احتراما شديدا ! وكانت مركبات الدرجة الأولى شبه خالية . فقلما وجد الإقبال على ركوب الدرجة الأولى

وحين أخذ الركاب يتقاطرون على المحطة ، أدرك الباريسى الأنيق ، من مجرد استعراض وجوههم ، أنهم من الفلاحين وصغار التجار .. وكان الشاب ذو النظارة الزرقاء يحس بقلبه يضطرب بين جنبيه حين يرى مخلوقا يدخل أو عربة تقف بالباب . بل إن ركبتيه كانتا ترتعدان . وقد لا يكون من المغالاة إذا قلت إن الحقيبة كانت للهفته تسقط من يده وتنحدر النظارة على طول أنفه ، فتبدو للعابر لو رآها هكذا أنهما فى وضع مهمل لا أقل ولا أكثر

وأخيرا دخلت امرأة مجللة بالسواد من باب جانبى لا يغرى بمراقبته ، وعلى وجهها نقاب صفيق ، وتحمل فى يدها حقيبة بنية اللون تحتوى — كما عرفت بعد — على روب حريرى رائع وخفين من حرير الساتان الأزرق

دنت المرأة من الشاب ودنا منها . وتلفتا ذات اليمين وذات الشمال ؛ ونظرا ماشاءا أن ينظرا أمامهما إلى أن التقيا فتصافحا . غير أنهما تلبثا بضع دقائق دون أن ينطقا بحرف ، وكان جسداهما يختلجان لما يصطخب فى صدريهما من انفعال .. انفعال أحتاج لكى أصفه إلى دراسة علم النفس مائة عام سويا

وهتفت الشابة قائلة : ليون !

.. آه .. نسيت أن أذكر أنها كانت فينانة الشباب، رائعة الحسن

— ليون ! ماأشدسعادتى بالبون ! آه ! هذه النظارة الزرقاء ! لم أكد أعرفك بها

فقال : وأنايا حياتى كدت لا أعرفك بهذا النقاب الصفيق

فقالت : إننى نشوى من الفرح .. هلم إلى مكاننا فى القطار . ماذا لو برح القطار من دوننا ؟

ثم ضغطت على دراعه قائلة: لقد دبرت كل شىء تدبيرا حسنا .. إننى الآن مع كلارا وزوجها فى سبيلنا إلى عزبتهما حيث أقضى معهما ليلة أبرح فى صباحها .. و ...

وضحكت ثم هزت رأسها وقالت :

ولقد خرجت مع كلارا منذ ساعة . وفى الغد بعد أن أبيت معها الليلة الأخيرة ، وضغطت على ذراعه مرة أخرى ، ستصحبنى كلارا إلى المحطة حيث أجد « أرسول » الذى أرسله إلى عمتى .. أرأيت كيف دبرت الأمر فأحكمت تدبيره ؟ هلم إلى شراء التذاكر .. محال أن يكتشفوا أمرنا . ولكن يالله ! .. بماذا نجيب لو سئلنا عن اسمينا . لقد فاتنى هذا

فقال : ليكن اسمانا « مسيو ومدام دورو »

فقالت : لا ... غيرهذا الاسم ، ففى حينا بائع أحذية بهذا الاسم

قال : إذن « دومون » أيعجبك ؟

فغمغمت : دومون !

فقال : على حال كل ، لا تراعى ، فلن يسألونا عن شىء

ودق الجرس ، فاندفعت المرأة بقناعها المسدل على وجهها إلى إحدى العربات ومعها صاحبها . وعندما دق الجرس دقته الثانية ، أغلق عليهما حمال باب الديوان فهتفا فى جذل :

— وحدنا أخيرا !

ولكن بعد لحظة ، اقتحم عليهما الديوان رجل فى الخمسين من العمر فى رداء أسود ، عابس الوجه ، مقطب الجبين ، وانزوى جالسا فى الركن القصى ... ودوى صفير القطار ، وبدأ يتحرك . وكأنما ضايقهما هذا المقتحم الثقيل ، إذ ابتعدا عنه ما وسعهما ، وأخذا يتهامسان بالإنجليزية درءا للشبهات

— سيدى !

انطلقت هذه اللفظة من الراكب الثالث بالإنجليزية أيضاً ، ولكن فى لهجة أسلم من لهجتهما :

ثم قال : إذا كان حديثكما مما تحرصان على كتمانه فستعملا لغة غير الإنجليزية فأنا إنجليزى الجنس . وبعد معذرة لاقتحامى الديوان عليكما . إذ كنت فى العربة الأخرى . وكان بها رجل واحد ، ولا أخشى أكثر من السفر فى عربة مع رجل واحد . لقد

كان الغدر والشر تلمع بهما عيناه . ولعله قد سال لعابه حينما رأى هذه

ثم أشار إلى حقيبته التي كان قد ألقى بها على المقعد أمامه . وأردف الرجل :

— أما إذا لم أستطع النوم ، فلسوف أقرأ

وأخرج من الحقيبة غطاء لرأسه ثم أغلق عينيه لبضع دقائق ، بيد أنه فتحهما في تبرم وأخرج من الحقيبة نظارة وكتابا لاتينيا ، ثم استغرق في قراءته . وقد حدث بينما كان يبحث عن الكتاب أن قلب محتويات الحقيبة ، وأخرج بعضها إلى المقعد ، وكان من بينها حزمة من أوراق النقد الإنجليزي . وقبل أن يعيدها إلى الحقيبة ، أرى الشاب إياها وسأله عما إذا كان يستطيع تحويل هذه الأوراق إلى عملة فرنسية

فأجابه : أظنك تستطيع ذلك في مدينة (انجلند) وكانت إنجلند هي المدينة التي يقصدها الشابان . وكان بها فندق صغير ، ولكنه نظيف أنيق . وكان غالبا ما يكتظ بالنزلاء وبخاصة في عطلة الأسبوع . وكانت غرفه نظيفة نسبيا . فلا يمكن أن نقارن طبعا بين فندق إنجلند وأحد فنادق باريس . وكان ليون قد زار الفندق قبل هذا ولكن بدون نظارة زرقاء . وبعد أن أشاد بالفندق من حيث الموقع والنظافة والخدمة ، تلهفت حبيبته إلى زيارته . هذا إلى أنها كانت في حالة من السعادة والابتهاج حتى لترى أن السجن مع ليون هو جنات النعيم

واتخذ القطار سبيله لا يلوي على شيء . واستغرق الإنجليزي في قراءة كتابه دون أن يحفل بالنظر إلى رفيقيه في السفر اللذين انطلقا يتناجيان في همس هو أسلوب العاشقين منذ القدم . وقد لا نثير دهشة في نفس القارئ إذا قلت إنهما كانا عاشقين هاربين . أما ما يبعث على الدهشة حقا والاستنكار ، فهو أنهما لم يتزوجا ولا حتى أزمعا الزواج استسلاما منهما للعقبات التي تعترض زواجهما

وبلغوا طيتهم . وكان الإنجليزي هو أول من غادر القطار ، وبينما كان ليون يساعد حبيبته على النزول اندفع من عربة مجاورة رجل هبط إلى الرصيف . كان شاحب الوجه ذا عينين غائرتين ينبعث منهما الشر ، وذقن مدببة . كان مظهره مظهر رجل مجرم بفطرته ، وكانت ثيابه نظيفة تمشاها البلى . وكان معطفه أسود اللون يوما ما ؛ أما الآن فقد أصبح أخضر داكنا عند الكتفين والظهر . وقد ضمه إلى عنقه وربما كان ذلك ليخفي سترته العتيقة البالية . وقد تقدم إلى الرجل الإنجليزي وهتف في لوعة : عماه !

— فصاح به الكهل الإنجليزي وعيناه تتقدان غضبا

— اغرب عن وجهي أيها الشقي

ثم هرول يبغى الخروج . فقال الشاب في لهجة تجمع بين اليأس والتهديد

— لا تدفعني إلى هاوية اليأس

فقال الإنجليزي لليون : ارع بنظرك هذه الحقيبة ثم ألقى بالحقيبة عند قدميه ، وقبض على ذراع الشاب الذي اعترضه وانتحى به ركنا مهملا ونهره في خشونة ثم أخرج من جيبه بعض الأوراق المالية ودسها في يده فأخذها دون أن يعنى بشكره وفارقه ثم اختفى

وكان بالمدينة فندق واحد . إذن فلا عجب أن اجتمع أشخاص هذه القصة مرة أخرى بعد بضع دقائق . وفي فرنسا تكون أجمل غرفة في الفندق عادة من نصيب الرجل الذي يتأبط ذراع امرأة أنيقة . مما يدل على أنها أرق شعوب أوربا جمعاء

وإذا كانت الغرفة التي أعدت لليون وصاحبته هي أحسن غرفة في الفندق ، فعلينا إذن أن نصدق أنها كانت حقا غرفة فاخرة . كان بها سرير خشبي كبير ، وعلى نوافذها أستار من المخمل نقش عليها بلون بنفسجي أسطورة «بيراموس وتيسب» أما الجدران فكانت مكسوة بورق بلون رسم عليه أحد مناظر مدينة نابولي ، وتناثرت عليها رسوم ووجوه مختلفة ، عمد بعض النزلاء الماجنين إلى تشويهها بإضافة رسم الشوارب والعلاليين إليها ، سواء في ذلك وجوه الرجال أو النساء . هذا إلى جمل حمقاء كتبت بالقلم الرصاص على موضع السماء والماء في الرسم . وعلى أحد الجدران كان ثمة نقوش أخرى تمثل بعض الأحداث التاريخية مثل لويس فيليب وهو يحلف اليمين في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٣٠ ، ومثل اللقاء الأول بين جوليا وبين القديس بريه ... إلى غير ذلك ... وكانت الغرفة مشهورة باسم الغرفة الزرقاء ، ذلك لأن المقعدين الكبيرين بها اللذين يحفان بالموقد ، كانا مكسوين بقطيفة هولاندية من ذلك اللون ، بيد أن اللون اختفى منذ بعيد تحت كسوة جديدة رمادية اللون لامعة يتناثر عليها تطريز على هيئة ورود ملونة صنوفها مختلفة الأصناف

وترك ليون حبيبته تمنى خادمة الغرفة بشؤونها ، وذهب إلى المقصف ليوصي بإعداد طعام العشاء ، وكان يحس ضيقا برغم وجوده في جو مشبع بروح الحب الندى وأنسام الهوى العاطرة . وكان عليه أن يبذل جهدا في إقناع أولى الشأن في الفندق كيما يعدوا له عشاء خاصا . بل كان عليه أن يلجأ إلى الرشوة لبلوغ قصده ولكنه دهش حين وجد أن ذلك سهل ميسور دون حاجة إلى قوة إقناع ، أو مال . فقد قيل له إن مائدة الفندق العامة الملاصقة للغرفة الزرقاء مشغولة

الليلة بفرقة ضباط الفرسان الثالثة التى كانت ماضية لتحل محل فرقة الضباط المشاة ومعنى هذا أن الطعام الجيد سيتوفر الليلة فى الفندق لهذه المناسبة

وقد أقسم صاحب الفندق بأغلظ الأيمان أن هؤلاء الضباط من بين جنود فرنسا أجمعين، يمتازون بأخلاق كريمة ، وأن تصرفاتهم لا تدفع إلى الشكوى ولا الامتعاض . وأكد له أنهم لن يزعجوا السيدة وصاحبها بوجودهم على مقربة من غرفتهما ، هذا ولو أنهم لا ينتهون من العشاء إلا قبيل منتصف الليل

واهتم ليون لهذا الأمر وحسب حسابه . ورأى من الأحداث كذلك ، أن الرجل الإنجليزى نزل بالغرفة الملاصقة لغرفته. وكانت الغرفة مفتوحة فى أثناء مروره بها ، فرأى خلال بابها الكهل الإنجليزى جالسا إلى مائدة صغيرة عليها زجاجة من خمر وكأس مترعة ، وقد علق بصره فى سقف الحجرة فى استغراق واهتمام كأنما كان يحصى عدد الذباب الذى كان يتواثب عليه ويحوم حواليه.

وقال ليون يحدث نفسه :

وماذا يهمنا أن يكون أى صنف من الناس جارا لنا ؟ سيستغرق الإنجليزى فى سكره بعد قليل ، أما عن الضباط فلسوف يبرحون قبل منتصف الليل

وكان أول شئ فعله ليون حين عاد إلى الغرفة الزوجية ، أن اختبر الأبواب . كان الباب الذى يفصل بينه وبين الإنجليزى من خشب سميك كما كان الجدار سميكا أيضا . أما الباب الموصل إلى مائدة الضباط فقد كان من خشب دقيق ولكنه كان على أية حال ذا رتاج ومفتاح . على كل حال كانت خلوتهما أمنع للفضول والتطفل من خلوة فى عربة كل ما فيها من حواجز ستائر مسدلة . وبعد فكم من العشاق من يزعم حين يختلى فى عربة أنه ابتعد عن أعين الدنيا بأسرها !

وأى خيال شاعر مهما أوتى من قوة التعبير ، يستطيع أن يصور تلك السعادة التى يختلج بها قلبا عاشقين صغيرين التقيا بعد طول بعاد .. وأى لقاء ! لقاء فى خلوة آمنة بعيدين عن أعين العواذل والرقباء والفضوليين يطرحان متاعبهما ويتفثان عن أشواقهما وينعمان بهوى ضارم مشبوب . . ولكن كثيرا ما يتلمس الشيطان بعض الأساليب ليصب بضع قطرات من العلقم فى كأس السعادة ذات الخمر الحالم اللذيذ ...

إذ حدث أنه بينما كان ليون ومالكة قلبه يتناولان عشاء متواضعا لذيذا توفر مما أعد للضباط ، إذ امتعضا وتقززا مما اشتمل عليه حديث السادة فى غرفة المائدة المجاورة من كلمات مكشوفة وألفاظ نابية . كانت أحاديثهم بعيدة كل البعد عن المعارك الحربية

والخطط الاستراتيجية .. ولعلى لا أستطيع أن أزجى للقارئ الفاضل مثلا من هذه الألفاظ . وكانت الضحكات الصاخبة تتفجر من حناجرهم بين الحين والحين. وكم أزعجتهما هذه الضحكات .. ولم تكن صاحبته من ذوات المزاج الحاد ، وإنما هناك أشياء تمج المرأة سماعها بخاصة إذا كانت مع الرجل الذى تهواه . وصارت الحال لا تطاق. وحين بدأ الضباط يتناولون الحلوى ، كان ليون فى سبيله إلى صاحب الفندق يرجو منه أن يطلب إلى هؤلاء السادة أن يكفوا عن إحداث كل هذه الجلبة وأن لا يسرفوا فى مجونهم الفاضح تلطفا منهم لوجود سيدة مريضة فى الغرفة المجاورة

وحار صاحب الفندق — كما هى عادة أمثاله بإزاء ضباط الجيش — كيف ينقل إليهم هذه الرسالة . وما كاد ليون ينتهى من رجائه ، حتى أقبل نادل يطلب زجاجة شمبانيا للضباط ، وخادمة أخرى تطلب زجاجة من النبيذ البرتغالى للكهل الإنجليزى ثم أضافت الخادمة :

علما بأنى قلت له إنه ليس لدينا خمر برتغالية . فقال صاحب الفندق معنفا إياها :

— يالك من حمقاء ! مالك ولهذا . أهى مضطرة أن تصنع خمرا برتغالية فى فرنسا .. سأمزج له سريعا زجاجة كأنها آنية لفورها من البرتغال

وبعد أن مزج الرجل الخمر المطلوبة ؛ ذهب إلى الضباط يبلغهم رسالة ليون

وهبت بين الضباط عاصفة حين سمعوا مقالة الرجل ، وانشق من بينهم صوت آمر ساد الصمت على أثره ونساءل هذا الصوت أى صنف من السيدات هذه الجارة المريضة . فقال صاحب الفندق :

— تقولوا يا سادة أنها جد فاتنة ، كما أنها خجولة كزنبقة طاهرة ، ولقد أنبأنى مارى جان أنها تضع فى بنصرها خاتم زواج ، لذا أعتقد أنها عروس جاءت مع عريسها لقضاء شهر العسل هنا كدأبهن دائما

فانفجر أربعون صوتا تهتف :

— عروس ! لابد أن تنضم إلينا وتشرب معنا . سنشرب جميعا نخب العروس الحسناء. ولسوف نعلم زوجها كيف يتصرف معها وارتفعت أصوات الضباط تحمسا للرأى المقترح . فارتعد العاشقان حسبانا منهما أن الضباط سيقتحمون عليهما الغرفة . ولكن عاد الصوت الآمر يزجرهم . أمرهم بالصمت ثم حادثهم فى همس لم يصل إلى آذان من فى الغرفة الزرقاء . لقد اقترح عليهم وسيلة أخرى للتسلية ، لم يثوروا لها فرحا ، وإنما تقبلوها فى تقدير وإعجاب

على أثر ذلك ساد صمت شامل ، وحمد

صاحبانا العاشقان لصوت الآمر صنيعه . وبدءا يتهمان بهمسات العشق ونجوى الغرام . بيد أن نصب السفر وذلك الأثر الذي تركه عبث الضباط في نفسيهما ، لم ينجابا عنهما إلا بعد فترة طالت على عاشقين . وإن اثنين في مثل سنهما الشابة الزاخرة ، لا يجدان كبير مشقة في التخلص من متاعب تتحالف على هاربين في الهوى ، وسرعان ما أوغل كل منهمـا في الاستمتاع بوقته واغتنام لذة ساعته

وخيل إليهما أن ما يخشيانه من الضباط قد انجاب وانجلى ؛ ولـكن ما كان هـذا مع الأسف إلاهدنة قصيرة إذ حدث في تلك اللحظة المرموقة ، تلك اللحظة التي كانا تحلقان فيها في آفاق من السعادة المطلقة أن انفجر صوت أربعة وعشرين بوقا مصحوبة بأصوات أخرى من آلات نحاسية في نشيد مشهور بين الفرنسيين هو «النصر لنا» ، كيف يطيق أي مخلوق مهما أوتي من قوة الاحتمال ، مثل هـذه الحلبة الهادرة

وانقلب العاشقان المسكينان إلى حالة تدعو إلى الرثاء

ولـكن . . كان ما أعقب ذلك أدهى وأمر . . إذ خرج الضباط في النهـاية من غرفة المـائدة ، وتعاظم سرورهم بخطواتهم المنتظمة والمزعجة أيضا ، حتى إذا وصل كل منهم إلى باب الغرفة الزرقاء صـاح بأعلى صوته : « طابت ليلتك أيتها العروس »

والآن . . اختفت الجلبة وعم الصمت . . لا . عفوا فقد أخطأت ، إذ خرج الإنجليزي إلى الردهة وصرخ قائلا : « يا ساقي ! إلى بزجاجة من هذا الشراب البرتغالي المدهش ! »

وأخيرا ، ساد الهدوء في الردهة الصغيرة . وكان الليل في روعة وسحر وجلال ، وكانت الأنسام تهب طرية ندية فتثير كوامن الشوق والحنين ، وكان القمر الزاهر يضفي على السكون نورا فضيا ساجيا يوحي بالشعر ويبعث الأحلام . . آه ! وعلى ذكر القمر ، لا يذكر التاريخ متى بدأ هيـام العشـاق بالتطلع إلى القمر وبالتغني بضوء القمر . . .

فتح ليون وصاحبته النافذة وكانت تطل على حديقة صغيرة واستقبلا نسـائم الليل النواحة بعطر الأزهار المحملة بترانيم الأطيار . ولم يطل بهما الوقوف في النافذة . كان في الحديقة رجل مقنع الرأس يعقـد ذراعيه على صدره ، وبين شفتيه سيجار مشتعل . وقد عرف فيه ليون ابن أخي الإنجليزي المولع بالخمر البرتغالية الجيدة

إنني أكره ذكر التفاصيل كلها ؛ كما أنه ليس مفروضا على أن أذكر للقارئ كل صغيرة وكبيرة تحـدث في الفندق . إذن

حسبي أن أقول إن الشمعة الموقدة والمثبتة على رف الموقد في الغرفة الزرقاء ، كانت قد أوشكت على نهايتها حين انفجر من مخدع الرجل الإنجليزي الذي كان يشتمله الصمت حتى الآن ، صوت جلبة شديدة ثم صرخة مكتومة وبضع كلمات مبهمة كأنها سباب وشتائم

واستولى الفزع على الشابين في الغرفة الزرقاء ، ولعل صوت السقوط كان قد أيقظهما من النوم ؛ إذ أن هذه الجلبة المجهولة قد كست وجهيهما بالحنق والسخط على حظهما التعس . وتكلف ليون ابتسامة تخللها قوله : — إنه صاحبنا الإنجليزي يحلم

وما كان قوله هذا إلا لإبعاد الخوف عن رفيقته ؛ ولكنه هو نفسه كان يرتعد في شكل ظاهر . ومرت دقيقتان أو ثلاث ، سمعا بعدها بابا في الردهة يفتح في حذر — على ما يبدو — ثم يغلق في هدوء وكأنما كان امرؤ يسير في الردهة خفيف الوطء مضطرب الخطى ، كأنه في أغلب الظن يحرص أن يمر دون أن يسمع وقع خطواته أحد . وصاح ليون في سخط وتبرم قائلا :

— أي مكان هذا المكان الملعون ؟

فقالت : — بل إنه الفردوس

ثم ألقت برأسها على صدر ليون وتثاءبت قائلة : ما ألذ النوم !

وتنهدت ثم رقدت وسرعان ما غلبها النوم ثانية . بيد أن ليون كان متوتر الأعصاب . وبدأ خياله يصور له أشياء لم يكن ليعبأ بها في ظرف غير هذا . ارتسم على صفحة ذهنه المرهق ابن أخي الرجل الإنجليزي المنحوس . لم تكن قد أعجبته نظرته إلى عمه في أثناء توسلاته حين كانا يتحادثان في المحطة . كان يسأله نقودا ولا ريب . وليس من العسير على شاب ملأ اليأس صدره أن يتسلق من الحديقة إلى نافذة الغرفة الملاصقة ، ثم هو ما زال في الفندق فقد رآه في الحديقة منذ قليل . من يدري .. ربما ... أجل ربما ... بل من المؤكد أنه كان يعلم بحزمة الأوراق المالية في حقيبة عمه . ثم هذه الضربة الشديدة التي تشبه سقوط هراوة ثقيلة على رأس أصلع ، وهذه الصرخة المكتومة ، وهذا الأنين الأليم ، ثم هذه الخطى الواجفة الحذرة ، إن لابن الأخ هذا لنفس مجرم قاتل .. ولكن كيف ؟ إن فندقا غاصا بالضباط ليس بالمكان اللائق لارتكاب جريمة ... ثم إن الرجل الإنجليزي ، وهو متشكك مرتاب، لا بد أنه قد أغلق بابه جيدا ، ولا سيما وهو يعلم أي نوع من الرجال يحوم حوله .. إنه لا يثق به ، وآية ذلك أنه لم يشأ الذهاب إليه وبيده الحقيبة . حين دعاه ،

ولكن يا لله ! لماذا ينقب الإنسان عن أوهام تنغص عليه وقته الهنئ إبان سعادته ؟

هذا ما دار بخاطر ليون ... ومن بين أفكاره هذه التي لا أحب أن أجعل القارئ يمل من الإطالة في وصفها ، والتي مضت تتتابع في خياله كرائي الأحلام ؛ ألفى بصره يتجه دون قصد منه إلى الباب الفاصل بين الغرفة الزرقاء وبين غرفة الإنجليزي

ويخلق بنا أن نشير إلى أن الأبواب في فرنسا لا تكون محكمة وإن أغلقت . كان بين هذا الباب وبين أرض الغرفة فتحة ارتفاعها نصف بوصة . وعلى حين فجأة ومن خلال هذه الفتحة تبدى له شئ قاتم اللون يبرق من طرفه ما يشبه سلاح مطواة انعكس ضوء الشمس على نصلها . ومضى هذا الخط القاتم من طرف ، اللامع من طرفه الآخر ، يزحف في بطء تجاه خفين من الساتان الأزرق ألقيا في إهمال على مقربة من الباب .. ماهذا .. أتراه حشرة زاحفة ؟ كلا .. ما هو بحشرة ، فما له هيئتها .. الآن أقبل خطان .. بل ثلاثة بنفس الجانب اللامع البراق تزحف إلى الغرفة الزرقاء .. وكانت حركتها سريعة بفضل انحدار أرض الغرفة .. الآن قد برح الخفاء .. إنه سائل ، وإن لونه ليبدو الآن واضحا في ضوء الشمعة .. إنه دم .. وبينا كان ليون جامدا لا يتحرك ، يحدق النظر في فزع إلى الشئ الرهيب ، كانت الشابة مستسلمة لنوم هادئ وأنفاسها الدافئة المنتظمة تلفح عنق الرجل المفزع

وكان ليون شابا متزن التفكير ، يدل على ذلك أنه أمر أول ما نزل بالفندق بإعداد طعام العشاء .. لذلك وضع لكل أمر احتماله ؛ ولم يفقد حضور بديهته ورباطة جأشه في هذا الموقف .. لم يأت بأية حركة تدل على انفعاله ، بل صعدت جميع الدماء إلى رأسه لاستنباط حيلة تخلصه من ذلك الموقف الصعب الذي يحيط به

ولعل القراء الأعزاء وخاصة السيدات منهم ينكرون على ليون هلعه وانهيار أعصابه ، ولعله يقال إنه كان حتما عليه أن يسرع إلى غرفة الرجل الإنجليزي ليعتقل قاتله ، أو على الأقل كان عليه أن يقرع جرس غرفته ويثير ضجة في الحانة كلها . ولكن ليون له معاذيره ؛ إذ يجب أن يدرك القراء أن حبل الجرس في الفنادق الفرنسية ، إن هو إلا بعض زينة غرف النوم والمخادع ، وغالب ما يفتقر إلى آلة معدنية تقوم بالغرض المنشود . كما يجب أن أضيف بكل تحفظ ولكن بإصرار على رأيي ، أنه ليس من السهل على عاشق يستقر على كتفه رأس حبيبته النائمة أن يزعجها بأمر جريمة حدثت في الغرفة

المجاورة قتل فيها إنجليزى . . فما يستحق مقتل أجنبى كل هذا العناء .. هذا إلى أنه ماذا كان يحدث لو أن ليون صاح بملء صوته وأيقظ الفندق كله . سيأتى رجال البوليس والمحققون ، وبدلا من أن يسألوه عما رأى وما سمع ، سيراهم بدافع الفضول يستجوبونه هكذا : « ما اسمك ؟ وأين أوراق شخصيتك ، والسيدة .. ما اسمها وما علاقتها بك . ولماذا تقيمان معا فى هذه الغرفة الزرقاء .. عليكما أن تثبتا للمحكمة أنكما ساعة الجريمة كنتما فى مكان كيت وكيت ... الخ »

كان هذا أول ما خطر ببال ليون .. وكم فى الحياة من مشكلات !.. والآن ! ترى أيهما أفضل ، أن تترك أجنبيا يقتل ، أم أن تجلب العار والفضيحة على امرأة حبيبة ؟ لا ريب أن ليون تصرف كأى رجل آخر يكون فى موقفه

لبث فى مكانه كالصنم . وبدا كأنه مخبول العقل وهو يرنو إلى الخفين الأزرقين ، والمجرى الأحمر الصغير الذى مسهما .. وتصبب العرق البارد من جبينه ، واشتدت ضربات قلبه كأنما ستمزق صدره . وانتابه إحساس بالخوف شديد ، وتلاحقت فى ذهنه أخيلة أفزعته ، وهب من أعماقه صوت راح يهمس فى كل كيانه : « سينكشف الأمر فى ساعة واحدة ... إنها غلطتك ، وإنها لنتيجة غلطتك »

ومن بين كلمات مثل هذا السؤال الذى ظل يدور فى ذهنه قوله « ماذا أصنع فى هذه المشكلة ؟ » غالبا ما يلمح الإنسان بصيصا من الأمل ... وقال ليون لنفسه يلتمس مخرجا : « ماذا لو أسرعنا بمغادرة هذا الفندق اللعين قبل أن يكتشفوا ما حدث فى الغرفة المجاورة .. ولسوف تضيع آثارنا . فما من أحد يعرفنا هنا .. ما رأونى إلا والنظارة الزرقاء على عينى ، وما رأوها إلا والقناع على وجهها . ولا يفصلنا عن المحطة سوى خطوات قلائل . وفى ساعة نكون بعيدين عن هذه المدينة الشئومة . » ... وبينما كان يدبر أمر فراره إذ وقع بصره على الساعة فذكر أن ثمة قطارا يمر بالمدينة فى الثامنة يقصد باريس حيث يستطيع هو ورفيقته فى زحمة تلك المدينة العظيمة أن يختفيا إلى الأبد . فطالما أخفت باريس المجرمين والأشقياء . من يستطيع فيها أن يعثر على شخصين بريئين ؟ ولكن ماذا تكون الحال لو دخل امرؤ غرفة الإنجليزى قبل الساعة الثامنة ؟ هذه هى المشكلة .. ولكن هل يستطيع غير هذا ؟ وبذل جهدا كبيرا للتخلص مما ران عليه من روع وفزع . واستيقظت رفيقته لأول حركة بدرت منه ، فقبلته ، بيد أنها صاحت عندما

مست خده البارد وهتفت فى لهفة :

— ماذا جرى ؟ إن جبينك بارد كالرخام

فقال فى صوت يرتجف :

— لا شىء إلا أنى سمعت جلبة فى الغرفة المجاورة

وغادر فراشه ابتغاء إخفاء أى أثر يجعلها تعلم . أخفى نعليها الأزرقين ، ووضع مقعدا كبيرا يخفى به خط السائل الأحمر الذى تجمع الآن وأنشأ ما يشبه بركة صغيرة على بلاط الغرفة ، ثم فتح الباب وأنصت فى الصالة ، ولمس فى نفسه جرأة جعلته يختبر باب غرفة الإنجليزى .. ألفاه مغلقا .. كان الهدوء يطوى الفندق كله . وكان نور القمر يشق ، وبدأ بعض الخدم يجهزون الجياد فى الإسطبل ، وفى الطابق الثانى كان ثمة ضابط يهبط الدرك وخلفه جلبة من مهمازيه

عاد ليون إلى الغرفة الزرقاء ، وقص على رفيقته الأمر كله فى أسلوب ملتو مخفف

كان من الخطر البقاء ، وكان من الخطر الإسراع فى الرحيل .. بل كان الخطر كل الخطر فى البقاء فى الحانة حتى يكتشفوا ما حدث فى الغرفة المجاورة . ومن العبث أن نفصل وصف الخوف الذى نشأ فى صدر الشابة العاشقة من سرد الخبر . هاتيكم الدموع الغزار التى انهمرت ، وتلكم الآراء التى قلبت . وكم من مرة ألقى كل من العاشقين بنفسه فى أحضان الآخر . وكم من مرة همست الشفاه المرتجفة « غفرانك يا حبيبى ! » ... « امسحى عنى يا حبيبتى ! » ولقد استقر فى روع الشابة الحسناء أنهما سيؤخذان بتهمة قتل الإنجليزى ، فأقسما أن يموتا معا ، وأبحى كل منهما على نفسه باللوم وأبعد التهمة عن صاحبه ، والتحما فى عناق طويل مخافة ألا يسمح لهما بذلك عند إنزال القصاص ، وسقيا شدة الوجد بالدموع الغزار

وأخيرا وبعد تبادل الهمسات وتقليب الرأى عرفا بين غمرة من العناق والقبل أن تدبير ليون أن يبرحا بقطار الثامنة هو أنسب التدابير ، ولكن أين هم من الساعة الثامنة الآن ؟ ما زال ثمة ساعتان طويلتان

وكم كانا يرتجفان ويستولى الرعب عليهما حين يطرق آذانهما وقع أقدام فى الردهة ، كل ضربة حذاء تسرع إلى خيالهما بتهاويل رجال البوليس وتصاويرهم ، وحزما أمتعتهما فى أقل من رد الطرف ، وأرادت الشابة أن تحرق الخفين الأزرقين فى المدفأة ، ولكن ليون أخذهما ومسحهما فى طرف ملاءة السرير ، ثم قبلهما ، وغيبهما فى جيبه ، ولقد دهش حين شم فيهما رائحة « الفانيليا » رائحة كانت تحبها رفيقته كما كانت تحبها الإمبراطورة أوجينى ...

الآن استيقظ كل نزلاء الفندق ، وتناثرت إلى أسماع ليون ورفيقته ضحكات الخدم

وترانيم الوصيفات ، وأناشيد الجند وهم ينظفون أثواب ضباطهم ... ودقت الساعة سبع دقات ، وأراد ليون أن يجعل حبيبته تتناول قدحا من القهوة ، ولكنها أشارت إلى حنجرتها كأنما تلتهب فلا تسيغ شيئا ما

وضع ليون نظارته الزرقاء على عينيه ، ثم هبط يدفع حسابه ، وأبدى له صاحب الفندق معاذيره عما حدث من جلبة وضوضاء ، فلم يفهم ليون ما يعنيه الرجل ، فإن كان يقصد جلبة الضباط وتصرفهم ، فقد كان ذلك نعمة كبرى قياسا إلى ماحدث فى غرفة الرجل الإنجليزى ... ومضى ليون يؤكد له أنه قضى ليلة هادئة هانئة

وتابع صاحب الفندق يقول :

— أما عن جارك الإنجليزى فلا يستطيع الآن مضايقتك ، فهو الآن يقينا نائم كالقتيل

هنا اعتمد ليون على مكتب الرجل اتقاء السقوط ، ورفيقته التى أصرت على مصاحبته شدت هى الأخرى على ذراع ليون وأثبتت القناع على وجهها

واستأنف صاحب النزل حديثه فى خشونة :

— إنه نبيل إنجليزى ، ولا يرضى بغير الأجود فى كل مطالبه ، وهو مهذب لاريب فى ذلك ، ولكن ليس كل الإنجليز مهذبين ، فبالفندق إنجليزى آخر كأنه مجرم سفاح ، كل شئ فى ناظريه مرتفع الثمن : أجر الغرفة ، وثمن العشاء ... وقد أرغمنى بلسانه السليط وعينيه المتوهجتين أن أستبدل له مائة وخمسين فرنكا بورقة مالية من فئة الخمسة جنيهات الإنجليزية ... انظر ياسيدى ! ها هى ذى الورقة أرجو ألا تكون زائفة

ونظر ليون إلى الورقة فى يد الرجل فرأى فى أحد أركانها بقعة حمراء فهم ليون منها كل شئ وعاد الرجل يقول :

— أظنها صحيحة . أوه ! مازال الوقت متسعا . فما يصل القطار إلا فى الثامنة . بل كثيرا ما يتأخر عن موعده . آه ! عفوا يا سيدتى .. ألا تجلسين ! يبدو أنك متعبة

هنا دلفت خادم عفراء مكتنزة . قالت :

— أسرع بماء ساخن لشاى اللورد ، ثم بالمنفجة أيضا فقد انكسرت زجاجة الخمر وعمرت غرفته جميعا

وترك ليون نفسه يسقط بين ذراعى مقعد كبير ، كذلك فعلت صاحبته ، بنفسها ، وأحسا كلاهما برغبة شديدة فى الضحك ، وتغير رأييهما ، فلن يبرحا بمثل هذه السرعة

وأمسكت الشابة بذراع ليون وهزته فى ابتهاج شديد . وقال ليون لصاحب الخان :

— يقينا لن نبرح قبل المساء . وعلى ذلك جهز لنا غداء فاخرا فى تمام الساعة الثانية عشرة

محمد عبد الفتاح